قنطرة
أم حكيم

جميع الحقوق محفوظة
لمؤسسة الرسالة
ولا يحق لأية جهة أن تطبع أو تعطي حق الطبع لأحد،
سواء كان مؤسسة رسمية أو أفرادا.

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف ٣١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢ ص.ب ٧٤٦٠ برقيا، بيوستران

نساء حبيبات

قنطرة أم حكيم

أم حكيم بنت الحارث بن هشام
تزوجها
عكرمة بن أبي جهل ـ خالد بن سعيد ـ عمر بن الخطاب

تأليف
رضوان داعبول

مؤسسة الرسالة

مقدمة

في تاريخنا نساءٌ فاضلات وما أكثرَهُنَّ، ضربنَ أمثلة رائعة في الدِّين والخُلُق، والمعاملة، وكنَّ رائداتٍ حَمَلْنَ الراية، رافقن الرجلَ في أفراحِهِ وأتراحِه، ووقَفْنَ إلى جانبه يُزَغْرِدْنَ يوم الزَّغردة، ويَصْبِرْنَ يومَ المُلِمَّات.

إنهن أمثلة تُحتَـذَى، ولهن مواقفُ لا يستطيع أيُّ إنسان إلا أن يُكبِرَهنَّ، لأن دورهنَّ كان كما أراد الله لهن.

مسلمـاتٌ، مؤمنـاتٌ، قَانتاتٌ، تائباتٌ، عابداتٌ، سائحاتٌ، ثَيِّباتٌ، وأبكارٌ.

إنني أحمِـلُ لهؤلاء النِّسـوة كلَّ محبـة وتقدير، ولذا قررت أن أقدِّمَ بعضاً من مواقفهن لأبنائنا وبناتنا، لتُنيرَ لهم الـدَّرْبَ، ولِيُدركَ أيُّ جيلٍ أنَّ الله خلقَ الإنسـانَ وخلقَ الذَّكَر والأنثى، لكلٍّ دَورُه ومكانُه، فَلْتَسْعَدْ نساؤُنا بتاريخ السابقات، وليكُنَّ خيرَ خلَفٍ لخير سَلَفٍ، والله الموفق.

رضوان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَفَدَت[1] اثنتا عَشْرَةَ امرأةً إلى منزل رسول الله ﷺ يومَ فَتحِ مكةَ يُبايعْنَه، وكان عندَه عددٌ من نسائه، وفاطمةُ رضي الله عنها ابنتهُ.

وتكلَّمَتْ إحداهُنَّ وهي مُتنقِّبةٌ[2] حتى لا تُعرف، وقالت:

«يا رسولَ الله، الحمدُ لله الذي أظهرَ هٰذا الدِّينَ[3] الذي اختاره للناس جميعاً، وإنِّي لَأسألُكَ أن تَمسَّني رَحِمُكَ بخير[4]، فإني امرأة مُصَدِّقة»[5].

ثم كشفت عن وجهها، وقالت (تُعرِّفُ بنفسها):

---

(١) وَفَدت: قَدِمت.

(٢) متنقبة: تضع على وجهها غطاءً.

(٣) أظهر هذا الدين: جعل له الغلبة.

(٤) تمسني رحمك بخير: أي تَصِلني.

(٥) مصَدِّقة: أُعطي الصدقة.

«هندُ بنتُ عُتبةَ يا رسولَ الله».

* * * *

كانَ الموقفُ لا يحتاجُ إلى تفسيرٍ، فهندٌ زوجةُ أبي سفيان لها مواقفُ ضدَّ المسلمينَ في الحروبِ، ويكفيها دَمُ حمزةَ عمِّ الرسولِ عليه السلام وحبيبِه... حين أرسلَتْ عبدَها «وَحْشيًّا» في معركةِ أحدٍ فقَتَله، ثم مَزَّقت أحشاءَه وحملَتْ كَبِدَ حمزةَ ولاكَتْها[1] تشفِّياً وانتقاماً.

واليوم انتصر الرسولُ ﷺ على كفارِ قريشٍ، وهَزَمَهم في دارِهم مكة، وجاء وقتُ القِصَاص. ولكنَّ رسولَ الله ﷺ قال:

«مرحباً بكِ..»

لِلَّهِ دَرُّكَ يا رسولَ الله.. كم أنتَ حليم، أترجَّبُ بها؟!

هذه صفاتُ الأنبياء والقادةِ الفاتحين الحقيقيين، لذلك اصطَفاك[2] ربُّ العالَمين حينَ قال: ﴿إنَّ الله

(١) ولاكتها: مضغتها.

(٢) اصطفاك: اختارك.

يَصطَفِي مِنَ الملائِكةِ رُسُلاً ومِنَ النَّاسِ ﴾[1].

لله دَرُّكَ يا أبـا القـاسم[2]، قلتَ: «مرحباً بكِ» دون تردُّدٍ، تأييداً لقوله تعالى: ﴿**والكاظِمينَ الغَيْظَ والعافِينَ عن النَّـاسِ، واللهُ يُحبُّ المحسِنينَ**﴾[3] ومـع ذلـك أكملَتْ حديثَها، وقالت:

«واللهِ يا رسـولَ الله، ما كان على وَجْهِ الأرض بيتٌ أحبَّ إليّ أن يُذَلَّ من بيتِك، ولقد أصبحتُ وما على وجهِ الأرضِ بيتٌ أحبَّ إليّ أن يَعِزَّ من بيتِك».

فقال لها رسول الله ﷺ:

«وزِيادة أيضاً».

وتابعت حديثَها، ثم بايَعَتْ الرسولَ وأسلمت.

* * * *

وقـامـت امـرأةٌ أخـرىٰ تُدعـى «أمَّ حكـيم» بنت

---

(١) الآية ٧٥ من سورة الحج.

(٢) أبو القاسم: هي كنية رسول الله ﷺ.

(٣) الآية ١٣٤ من سورة آل عمران.

الحارث بن هشام من بني مَخزومٍ ، وكانت زوجَ عكرمة بن أبي جهلٍ .

وعكرمةُ هٰذا كان من الذين قاتلوا الرسول ﷺ وبقي مشركاً حتى ذٰلك اليوم ، وهو من جُملةِ النَّفَر[1] الذين قاتَلوا على مكةَ ، وتَصَدَّوا لجيش رسولِ الله ﷺ ، فهزمهم خالدُ ابن الوليد ، وقتل منهم مَنْ قتلَ . ولاذَ[2] بعضُهم بالفَرار ، فعفا الرسولُ ﷺ عن البعض ، واستَثْنىٰ بعضاً منهم ، فأمَرَ بقتلهم ولو وُجِدوا تحتَ أستارِ الكعبة ، وكان عِكرمةُ منهم .

وعكـرمةُ وَلَدُ أبي جهلٍ (عمرو بن هشام) أكبرِ أعداءِ المسلمين ، والذي له تاريخٌ طويل في مُحاربةِ المسلمين وقتالهم والتَّصَدِّي للإسلام ، قُتِل في معركة بَدْر .

* * * *

وقفَتْ «أُمُّ حكيم» وأسلَمتْ ، ثم قالت :

«يا رسـولَ الله ، قد هَرَب منـك عكرمةُ خوفاً من أن تَقتُلَه ، فأَمِّنْه أَمَّنَك الله» .

---

(١) النَّفَر : ما دون العشرة من الناس .

(٢) لاذ : التجأ واستتر .

وردَّ الرسولُ ﷺ، وقال:

«هو آمِنٌ».

في الحروب يَقِفُ المنتصرُ يُصَفِّي أعداءَه واحداً تِلْوَ الآخر، يقفُ في ساحة كبيرة وينادي على المهزومين واحداً واحداً، تُقطَعُ رؤوسهم أمامَهُ، مأخوذاً بنَشْوَةِ النَّصر[1]، وتكون الساعةُ ساعةَ حساب، أما الإسلامُ فله شأنٌ آخر.

إنها فتوحٌ وليست حروباً.

الحربُ: صراعٌ على أرضٍ، أو مالٍ، أو جاهٍ، والمنتصرُ هو المالك وصاحبُ القرار.

أمَّا الفَتْحُ: فهو دَعوةٌ إلى الله، وانتصارٌ للحق، وإعلان للشهادةِ: «أشهدُ أن لا إلٰهَ إلّا الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله» أي: دخولٌ في الإسلام.

* * * *

لقد استَقْبَلَ النبيُّ ﷺ هٰؤُلاء النِّسوة، ووقفت إحداهُنَّ

---

(١) نشوة النصر: سكرته.

ـ وهي مشاركة في قتل عمِّه ـ فبايعته عن رضاً، وقال لها:

«مرحباً بك».

وقامت الأخرى تستأمِنُه لزوجها، وتقول:

«أمِّنه أمَّنَك الله».

فيقول:

«هو آمِنٌ».

لم يكن عَقلُها يَستَوعِبُ تلك اللَّحظة، خرجَتْ من عندِ رسولِ الله ﷺ تردِّدُ:

«هو آمن...».

هٰذه الكلمـةُ التي مَلأَت فِكـرَها وقلْبَها، خرجت لا تَلوي[1] على شيءٍ إلى منـزلهـا، حملت مَتـاعَهـا على عَجَلٍ، وخرجَتْ من ساعتها في طلب زوجها مع غُلامٍ رُوميٍّ لها، فيمَّمَتْ شَطْر اليمن[2].

---

(١) تلوي: تلتفت.

(٢) يعني توجهت إليها.

كانت تحثُّ الخُطىٰ . . المسافة بعيدة . . أين أنت يا عكرمة الآن؟ تعالَ فاسمع : أنتَ آمن . . يَتفوَّه[1] بها رسول الله . . .

يا حبيبي يا رسولَ الله . . يا لَك من نَبيّ .

كان إحساسُها بأنَّ زوجَها وُلِدَ من جديدٍ، وكانت في ذِروةِ[2] نشوتها، تسيرُ مسرعةً تنتظرُ اللحظةَ التي ستُبَلِّغُ بها زوجَها الخبر، وكان الغلامُ الروميُّ يَرقُبُها عن بُعْدٍ، حتى إذا خلا له الجوُّ والمكان أرادها بسوء، فنظرت إليه وكأنها تقولُ في نفسها : أين أنت مني؟

ولكنها لحظاتٌ لا يَصلُح فيها إلا الاعتذارُ والمماطلة والتمنِّي، وهكذا كان . . حتى قَدِمَتْ على حيٍّ من العرب، فاستعانتهم عليه، فأوثقوه وتركته عندَهم .

* * * *

وانطَلَقت تُسرِعُ الخُطى من جديد وراءَ الحبيب ابن العمِّ، حتى أدرَكَتْهُ عندَ ساحل البحر يفاوضُ صاحبَ

---

(١) يتفوَّه : ينطق .

(٢) الذروة من كل شيء : أعلاه .

مركب (نوتي) لنقله إلى الطرف الآخرِ من البحر.

وتُقبلُ «أم حكيم» على عكرمة، ويَستقبِلُها الزوجُ وقد أدْهَشَتْه المفاجأةُ، ويقول لها:

«ما الذي جاءَ بِك».

فتقول:

يا ابنَ عمِّ جئتُك من عند أفضلِ الناس، وأبرِّ الناس، وخيرِ النَّاسِ، مِن عندِ محمد بن عبد الله، وقد استأمنتُ لك منه فأَمَّنَك، فلا تُهلِكْ نفسَك.

سَمِع عكرمةُ هٰذا غيرَ مصدِّقٍ، وسألها مستوضِحاً، فقال:

«أنتِ كلَّمتِيهِ».

فالت:

«نعم، أنا كلَّمتُه فأمَّنك».

وما زالت به تؤمِّنُه وتُطمئِنُه حتى عادَ معها مسرعاً، وفي الطريق قتل الغلام الروميَّ، لإساءته ويمما شطر مكة.

وأراد عِكرمةُ أن يَخْلُو بزوجته، فأبَتْ أشدَّ الإباء. وقالت:

«إني مُسلمةٌ، وأنت مُشرِكٌ».

فتعجب منها، وقال:

«إنَّ أمراً يَحُولُ دونَكِ ودونَ الخَلْوة بي لأمرٌ كبير».

وعلم القومُ بقُرب قدوم عكرمةَ وزوجِه، وخَشِي عليه السلامُ أن يُعيِّروه بوالِده، فقال لأصحابه:

«سيأتيكم عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ مؤمناً مهاجراً، فلا تَسُبُّوا أباه، فإنَّ سبَّ الميت يُؤذِي الحيَّ ولا يَبلُغُ الميتَ».

وترقَّب الناسُ وانتظروا قدومَ عكرمةَ ليتابعوا الحدَث، ويَرَوْا كيف يكونُ اللقاءُ، فستكون لحظات لا تُنسى في حياةِ عكرمةَ، فيها يُفرَقُ الأمرُ ويتبين.

* * * *

وَصَل عكرمةُ وزوجُه، وهبَّ إليه الرسول الكريم عليه السلام من غير تَوانٍ[1] فرحاً به...

---

(١) تواني: تمهُّل.

رجل يَهُبُّ رسولُ الله لاستقباله، ومنذ أيام كان العدوَّ اللّدودَ[1]، كان من أشدِّ أعداء الإسلام.. يا سبحانَ اللهِ.

صحيحٌ أن الإسلام أصبحَ في غِنىً عن عكرمةَ وأضرابِه بعدَ فتح مكة، وأن الله غالبٌ على أمره، ولكنَّ النفسَ البشريةَ، والبشارة بأن الله ناصرُ دينِه، تجعلُ من النبي يَسعى إلى الخير، وإلى رجل يَعرِفُ أنه من خِيرة الرجال، ورجل بألف رجل.

* * * *

وانتهى دورُ «أمِّ حكيم» بإيصال زوجها، وأسلَمَ عكرمةُ وحَسُنَ إسلامُه، ودعا له الرسول عليه السلام، وانضمَّ إلى موكب الدَّعوة جندياً يَحملُ الرايةَ، وخاضَ مع المسلمينَ جميعَ المعاركِ، وأصبح قائداً...

ونَدَب[2] أبو بكرٍ رضي الله عنه الناسَ إلى غَزْو الرُّوم، وقَدِم الناسُ، فعسكروا بالجُرْف، على ميلين من المدينة، وخرج أبو بكر رضي الله عنه يَطُوفُ في معسكرهم، ويُقوِّي الضعيف منهم، فبَصُرَ بخباءٍ[3] عظيم، ترابطُ حولَه ثمانيةُ

(١) اللَّدود: الخصم الشديد الخصومة.

(٢) نَدَب: دعا. (٣) الخِباء: الخيمة.

أفراسٍ ورماح وعُدَّةٌ ظاهرة.

وانتهى أبـو بكر إلى الخباء، فإذا هو خباء عكرمة، فسلّم عليه ووقفت «أم حكيم» بداخله تَرقُبُ وتسمـع ما يَدور بين الخليفة وزوجها، وأثنى أبو بكر على عكرمةَ، وعَرَضَ عليه المعونةَ.

فقال عكرمة:

«أنا غَنيٌّ عنها، معي ألف دينارٍ، فَاصرِفْ مَعُونَتَك إلى غيري».

فدعا له أبو بكر ولزوجه وأصحابه، وانصرف.

* * * *

وفي يوم اليرموك أقبل عكرمةُ على القتال، ولما اشتدَّ الكَـرْبُ[1] على المسلمين في أحـد المواقف، نَزَل عن جواده وكسر غِمْدَ سيفه، وأوغَلَ في صفوف الروم، فتصدَّى له خالدُ بن الوليد يمنَعُه.

ويقول:

---

(١) الكَرْب: الحُزن والشدة.

«لا تَفعَلْ يا عكرمةُ، فإن قَتْلَك سيكون شديداً على المسلمين».

فقال:

«إليكَ عني يا خالدُ.. إليك عني أُكَفِّرْ عما سَلَف[1] مني».

ونادىٰ:

«مَن يُبايع على الموت؟».

فبايعه عمُّه الحارث بن هشام والد أم حكيم، وضرار ابن الأزور في أربع مئة من المسلمين فقاتلوا...

وانجلت المعركةُ عن النصر المؤزَّر للمسلمين، وكان عكرمة مُمدَّداً على الأرض مع عمه الحارث، وعياش بن أبي ربيعة.

ودعا الحارثُ بماء ليشرَبَه، فلما قُدِّم له نَظَر إليه عكرمة.

فقال:

---

(١) سلَف: مضى.

«ادفَعُوه إليه».

فلما قرَّبوه منه نظر إليه عياش.

فقال:

«ادفَعُوه إليه».

فلما دَنَوا من عياش وجدوه قد قضى نَحْبَه[1]، فلما عادوا إلى صاحبَيْه وجدوهما قد لَحقا به، رضي الله عنهم أجمعين.

وبكت «أمُّ حكيم» زوجَها عكرمة، ووالدها الحارث، بكاءً مُرّاً، ولكنها سلَّمت أمرَها لله.. لقد مات زوجُها شهيداً رافعاً لواء الدعوة إلى الله، قاتلَ في ظل راية الإسلام، مؤمناً، صادقاً، محتسباً، واستُشهِد، وكانت «أمُّ حكيم» تَرقُبُ الأحداثَ.

واعتدَّتْ «أمُّ حَكيم» على زوجها أربعةَ أشهر وعشراً، وكان يزيدُ بن أبي سفيان يَخطُبُها، وكان خالد بن سعيد يُرسِل إليها يعرض لها في خِطبتها، فخطبت إلى خالد بن سعيد فتزوَّجها على أربع مئة دينار.

---

(١) قَضى نحبه: مات.

ونَزَل المسلمونَ مَرْجَ الصُّفَّر قربَ دمشق، وكان خالد شَهِدَ أجنادِين، وأراد أن يُعرِسَ[1] بـ «أم حَكيم».

فجعلت تقولُ:

«لو أخَّرتَ الدخولَ حتى يَفُضَّ اللَّهُ هٰذه الجُموعَ».

فقال خالد:

«إنَّ نفسي تُحدِّثُني أني أصابُ في جموعهم».

قالت:

«فدونَك» . . ووافقت.

فأعـرَسَ بها عند القنطرة التي بالصُّفَّر، وبها سُمِّيت «قنـطرة أم حكيم» وأولَـم عليهـا، فدعـا أصحـابَه على طعـام، فمـا فَرَغـوا من الطعام حتى صَفَّت الروم صفوفاً خلفَ صفوف، وبَرَز رجل منهم يدعو إلى المبارزة، فبرز إليه أبو جندل بن سُهيل بن عمرو، فنهاه أبو عُبيدة، فبَرَز حَبيب بن سَلمة فقتله حبيب.

ورجع إلى موضعه.

---

(١) يتزوج.

وبرز خالدُ بن سعيد فقاتل فقُتِل.

وشـدَّت «أم حَكيم» ثيابَهـا، وظهرت وإن عليها أثرُ الخَلُوق[1]، فاقتتل الفريقان أشدَّ القتال على النهر، وصَبرَ المسلمون، وأخذت السيوفُ بعضُها في بعض، وقتلت «أُمُّ حكيم» يَومئذٍ سبعةً من الروم بعمود الفُسطَاط[2] الذي بات فيه خالدٌ معرساً بها.

لله درك يا «يا أم حكـيم» كم يحـلو لي أن أتخيلك تحملين عمود الفسطاط تضربين به أعداء الله فيسقطون صرعىٰ، واحداً وراء الآخر، وأرىٰ وجهك وقد علته ابتسامة النصـر والـرضا تخلصين من أحدهم لتنتقلي إلى الآخر بعزيمة وثبات، وأتخيل هؤلاء العلوج ينظرون إليك وهم يرون قتلاهم صرعىٰ. كان الاستهزاء في البداية والعجب بعـد ذلـك مع ازدياد الـدهشة، وأخيراً الهروب من أمام البطلة زوجة الشهيد... بارك الله فيك.

ولقـد عرف أمير المؤمنين عمـر بن الخـطاب قدرك

---

(١) الخَلوق: الطِّيب.

(٢) الفُسطاط: كالخيمة.

ومكـانتـك العالية، فكنت عزيزة عليه، حبيبة إلى قلبه، فأكرمك بزواجه منك، فأنت أهل لمثله وكان أن أنجبت له «فاطمة»...

كان الزوج الأول عكرمة قائداً للمسلمين...
وكان الزوج الثاني خالد قائداً للمسلمين...
وكان الثالث عمر أمير المؤمنين...

* * * *

ومضت الأيامُ، وأفـاقت «أمُّ حكيم» لتجـدَ نفسهـا وحيدةً، لا زوجَ لهـا، بعد مقتل أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه، فعزفت عن الزواج من بعده.. ولم يمض كبير وقت حتى دنا أجلها المحتوم، ففارقت الدنيا، بنفس رضية مطمئنة، بعد أن أنعم الله عليها بالإسلام، وزوّجها ثلاثة من خيار المسلمين، كلما مضى واحد إلى لقاء ربه شهيداً في سبيل الله، تزوجهـا من هو خير منه.. فكان آخرهم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين..

رحمكِ الله يا «أم حكيم»، وأدخَلَكِ الجنة، ومِثْلك فَلْتَلِد النساءُ.

أسئلة للاستذكار

س١ : مَن هي أم حكيم؟

س٢ : متى أسلمت، ولمن استأمنت؟

س٣: ماذا فعلت حين أمن الرسول زوجها؟

س٤ : من تزوجت؟ ومتى توفي زوجها خالد؟

س٥ : لماذا سميت القنطرة بـ «قنطرة أم حكيم»؟

س٦ : أين تقع القنطرة؟

المصادر والمراجع

- أعلام النساء عمر رضا كحالة مؤسسة الرسالة.
- سير أعلام النبلاء الذهبي/ تحقيق شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة
- العقد الثمين الفاسي مؤسسة الرسالة.
- أسد الغابة ابن الأثير دار الشعب:
- الإصابة ابن حجر دار صادر.
- تهذيب التهذيب ابن حجر دار صادر.
- الطبقات الكبرى ابن سعد دار صادر.